تأملات

التفـــاحة

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— ما هذه الهدية السخيفة التى أرسلتها إلىّ فى خطابك الأخير ؟ !

— أصورة « التفاحة » سخيفة ؟ أو لا ترى فيها معنى ، أو لا تثير فيكَ شيئاً ؟ حقاً ، إنكَ متأخر

— ولماذا لا تقولين إننى شبعان ؟

— وهلا يعجب بصورة للتفاحة إلا الجياع ؟ ! إنها يا هذا رمز لما لا يؤكل ولا يشرب

— يا للتعقيد ! ولأى شىء ترمز التفاحة ؟ لقد كنت أحسب إحساساً فنياً الذى بعثك على رسمها ؛ وكنت أحسبك مخلصة فى تصورها وتصويرها ، ولم يكن يخطر فى بالى أنك تجعلين منها ستراً تسدلينه على أسرار فى نفسك ...

— ولكنه ستر خفيف شفاف ، لا أظنه يحجب السر عن العين ... إلا إذا كانت عيناً بلهاء تصدق ما ترى

— فهذا الستر إذن كغلالة الحرير التى تتشح بها الإبليسة تزعمها أمام الأتقياء البلهاء حشمة ، وتقول بها لكل جارحة من الأعين هأنذا !

— يا للقراسة ! هو هذا الذى تقول ... فهل تستطيع بعد أن عرفت هذا أن تقرأ التفاحة ؟ ...

— بل قولى رسم « التفاحة » ، فإنى مع التفاحة لا أستطيع إلا أن آكلها ...

— فليكن ... ماذا تقرأ فى رسم التفاحة ... ؟

— يجب أن تساعدينى بأكثر من هذا ... فإنك إلى الآن لم تقولى لى من أين أبدأ القراءة ... من اليمين أم من الشمال ؟ ...

— يمين ماذا وشمال ما ذا ؟ ألهذا الرسم يمين وشمال ؟ كل ما فيها ألوان ... حمرة مفردة ، وصفرة مفردة ، وحمرة وصفرة ممتزجتان : تخف إحداهما فى المزيج مرة وتثقل مرة ، وتخف فى ناحية أكثر مما تخف فى الأخرى ، وتثقل فى ناحية أكثر مما تثقل فى الأخرى ... فهلا يحدثك هذا كله بشىء ؟ ...

— إنتظرى قليلاً ، ففى درس القراءة الأول يغفر الهجاء ... لنبدأ بهذه الحمرة ... هى لون الدم ، وهى لون اللحم ، فيها من الحياة ، وفيها من الفحش ، وفيها أيضاً من النار لذة الدفء وعذاب الحريق ، وفيها من الورد شعر ، وفيها من الخد صبا ، وفيها من الشفاه حنين ونداء ... وكلام ... ، وفيها من الخجل ، وفيها من المغيظ منذ الغيرة إذا استحيت إلى الحنق إذا اضطرم ... فى الحمرة هذا ، وقد يكون فيها غيره ... فهل هـذا يكفى الآن ابتداء أسايرك به ...

— بداية لا بأس بها ... فماذا ترى فى هذه الصفرة ...؟

— يا سبحان الله لا أدرى لماذا أكره الصفرة ... لست أرى فيها إلا الموت

— وهل تكره الموت ؟ إنه علينا حق

— على العين والرأس نؤديه طائعين ومكرهين ما دامت أمك حواء قد اشتهت الكارثة التفاحة ...

— ليست حواء أمى أنا وحدى فهى أمك أنت أيضاً ... أما تحب أنت التفاح

— لا أحبه ولا أكرهه ، أو أنا أحبه وأكرهه ...

— لعلك تحب حمرته وتكره صفرته ، ما دمت تخاف من الموت ... ولكن ألست ترى فى الصفرة أيضاً لون الذهب ... أو لون بعض الشعر ...

— أما الذهب فشغلة يلاعب العابثون عقول النساء بها وهن يحببنه وهم يحبونه من أجلهن ... وأما ذلك الشعر الأصفر فلا أكتمك أنى أحس فيه بشىء من البرودة لا تنزع نفسى إليه كثيراً ... وهو عندى كالعيون الزرق والعيون الخضر ربما لاح لى فيها صفاء وبراءة ولكنى لا أغفل فيها عن لين ورقة وتكبر وهذه لا تشجع المتعطش إلى الوفاء الراغب فى التحكم ...

— لو أنك تستطيع أن تحفظ على هذى العيون صفاءها

وبراءتها ، وأن تحفظها من زلقها وكبريائها لذقت من وفائها ما يرضيك وابسطت عليها ما شئت من حكم وسلطة ... ولكنك كسلان ومثلك جدير به أن يعيش فى مصحة يسقيه أطباؤه الحب ، ويحقنونه بالراحة والسعادة ...

— الله يسمع منك !

— فأنت معذور حين سخرت من صورة التفاحة

— بل كنت بسيطاً لم أر فيها إلا أنها طعام

— ولى عليك الآن أن تشكرنى فقد علمتك أن ترى فيها أكثر من ذلك

— بل إنى أرى هذا الذى علمتنى إياه شيئاً تستحقين عليه اللعنة لا الشكر . فأنت قد فتكت بعقلى ، وأنا أشعر أنى سأصبح بعد هذا الذى تعلمته منك إنساناً موسوساً كلما رأيت شيئاً حاولت أن أعرف له معنى من وراء معناه البارز ، وهذا أمر سيهدينى من غير شك إلى حقائق هى غائبة عنى اليوم ، ولكنه فى الوقت نفسه سيبعثنى إلى أوهام وخيالات قد أحسبها حقائق إذ يركن عندها عقلى بينما هى ليست فى الحق إلا عوارض ... فما نجاتى من هذا وأنا لا أحب إلا أن أرسو عند حق أطمئن إليه ؟ وقد كنت مرتاحاً يوم كنت راضياً عما كان يواجهنى من أبسط الحقائق ...

— إنما كنت راضياً عن البلاهة

— وكنت أجد فيها كل المتعة . ألست ترين الزنجى الذى إذا رأى التفاحة على الشجرة قطفها ونهشها أسعد حالاً من ذلك المتحضر المترف الذى يراها فيستغرق فى النظر إليها هذا الاستغراق الذى تريدينه ، ثم يقوم آخر الأمر فيرسمها ... لماذا يرسمها ؟ ... هل هو إذا أتقنها مهما أتقنها استطاع أن يجعلها تفاحة ؟ ... والله ليست هذه إلا خيبة !

— بل هو الفن ...

— فن الضعف ... وهو كذلك الضعف الذى يأخذ نفس الشاعر حين يلقى محبوبه فيتركه أمامه ويغمض عينيه ليتصوره ، أو يقضى معه الساعات ثم يغادره لكى يحلم به ، فإذا واقاه فى المنام لم يكن بينهما إلا كلام نافه لا يغنى ولا يقنع به عاشق من غير الشعراء ...

— وكل العشاق من غير الشعراء إن نعموا بالحب فنعيمهم به زائل إلى جانب أنه نعيم ناقص ؛ أما الشعراء فنعيمهم بالحب خالد إلى جانب أنه نعيم سام

— هذا هو الكلام الذى تقوله كل حواء للضعيف المتخاذل من عشاقها تواسيه فتعترف له بأنه صاحب فن ، وتسخر منه عند نفسها لا لنقص فيه إلا أنه صاحب فن ... أو تريدين أنت أن تنكرى هذا ؟ هل ترضى المرأة عن الرجل الذى إذا أحبها قال فيها كلاماً أو صورها أو تغنى بها ، أو لا يكون رضاها إلا عن الرجل الذى إذا أحبها مد إليها يده وجرها ..

— ليست النساء سواء ...

— بل إنهن سواء ...

— إذا زعمت أنهن سواء فعليك أيضاً أن تقول إن الرجال سواء ... ولكنك قلت إنهم ليسوا كذلك وإن منهم من يأكل التفاحة ومنهم من يصورها ... فكذلك النساء .

— فيهن من تأكل ، وفيهن من ترسم ؟

— ألم أرسم أنا ؟ وهل فى رسمى عيب إلا أنى أهديته إليك؟ يا ضيعتى معك !.. كنت أحسب الرسم سيبهرك فتقول فيه كلمة طيبة ... ولكنها توبة من اليوم

— الذنب ذنبك لأنك اخترت لهديتك موضوعاً لا يؤديه الرسم أداء كاملاً ... فللتفاحة طعم ، ولها رائحة ، ولها نعومة حسناء ؟ وهذا كله يقعد الرسم عن تصويره

— ومن قال لك إنى كنت أريد أن أصور شيئاً من هذا ... إنه لم يكن يدور بخلدى إلا ما توحيه الألوان

— فلماذا لم ترسمى دائرة حمراء ودائرة صفراء ودوائر أخرى فيها أمزجة من اللونين ؟

— وهذا ما صنعت ، وكل ما فى الأمر أنى اختصرت الرسم فى دائرة واحدة ...

— وهـذا هو الذى يبعثنى على أن أنكر تفاحتك . فلو أنى أحسست بها تفاحة حقة لكنت أعجبت بها ، ولكنت قضمتها أيضاً ، ولكنها كانت عند ما ألقيت عليها النظرة الأولى زوراً وباطلاً ، كالقصة الملفقة المتنافرة الحوادث التى يريد ساردها أن يبرىء نفسه من تهمة فلا يؤدى سرده إياها إلا إلى تعزيز الشك فى نفس سامعه ... والآن اسمحى لى أن أسألك سؤالاً ... هل يقصد كل أولئك الرسامين الذين يرسمون الموز ، والطماطم

والبطيخ والشمام وسائر الفواكه والخضر إلى معان بعيدة كهذا المعنى البعيد الذى قصدت إليه حين رسمت التفاحة ؟

— أظن ذلك

— فما معنى البطيخة ؟ وما معنى الخيارة ؟

— انتظر حتى أفكر ...

— يخيل إلىّ أنك ستفكرين طويلاً جداً ولن تهتدى إلى معنى لكل ثمرة ...

— ولكن التفاحة ليست ثمرة عادية . إن لها قصة قديمة مع الإنسان ...

— قد تكون هذه القصة هى المبرر الوحيد لاهتمام الرسام بها. أما غير ذلك فلا أظن شيئاً يبرر رسم الثمرات إلا الجوع ، فالله خلقها للأكل لا للزينة ولا للتفلسف ...

— وهل هناك ما يمنع من أن تكون موضعاً للتفلسف ومطلباً للزينة إلى جانب ما هى بغية للبطن ؟

— لست أرى ما يمنع ذلك، ولكنى لا أرى أيضاً ما يدعو إليه

— ألم يرسم الفراعنة القمح ؟ لماذا رسموه ؟ ... هل كانوا جياعاً وما أكثر القمح فى مصر ؟

— رسموه تقديساً !

— وأنا أرسم التفاحة تقديساً أيضاً ...

— أعوذ بالله ... قد يكون للإنسان عذر إذا قدس القمح فهو غذاؤه الأول ... ولكن هذه التفاحة التى كان الجحيم فيها وكان العذاب ... هل تقدسينها ؟ ...

— فيها النار وفيها العذاب هذا حق ، ولكن فيها أيضاً ما ذكرته أنت أولاً ... فيها الدنيا ، ونحن فى الدنيا ولا طاقة لنا أن نقفز فيها إلى السماء ...

— غيرك من الرسامين يستطيع أن يقفز بالتفاحة إلى السماء

— ولكن السماء لم تعد تثمر التفاح ...

— من قال لك ذلك؟ إن من السماء صفرة التفاحة وحمرتها، ومن السماء نورها وتقواها

— فكيف كنت تريدنى أن أرسمها ...

— إنى أعرف وجهاً هو التفاحة؛ ولو أنى رسام لصورته لك ولدعمتك إلى الإيمان به من نظرة واحدة ...

— وجه من ؟

— وجهك أنت ... ألست تريته فى المرآة ... ولكن كيف تريته وأنت لم تنظرى إليه يوماً بنفس مفتوحة وإن كنت تنظرين إليه دائماً بالعين المفتوحة ...

— ماذا تقصد ...؟

— أصحيح أنك تريدين أن تعرفى ماذا أقصد ، أو أنك تريدين أن نطيل هذا الحديث لأنه عنك ، وعن وجهك ، وأنت قليلاً ما تظفرين منى بحديث كهذا ...

— لا وحياتك ... فأنت تعرف أننى غبية إلى حد كبير وأنى بطيئة الفهم ، كما تعرف أنك خائن الحديث لا يسلم كلامك من الظلمة حتى عند ما تصدق وعند ما تصارح

— سامحك الله فليس أبشع من هذا إزهاق لاستقامة نيتى وسلامتها ... الذى أريد أن أقوله يا « مدموازيل ديليشس » أنك كلما نظرت إلى وجهك فى المرآة بحثت فيه عن علائم الصحة وعلامات الجمال التى تعارف الناس عليها ، فأنت تفتشينه تفتيشاً دقيقاً ، فإذا أرضاك خرجت به بعد تزيين بسيط ، وإلا فأنت تزيدين التزيين حتى يكون مكياجاً وتنكراً تطالعين به الناس وفق ما يهوى عيناك ...

— وهل كنت تريدنى أن أرى وجهى بغير عينىّ ...

— نعم . كنت أريد أن تريه بعينى أنا ، فما كانت تمتد إليه يدك بدهان ولا بمسحوق

— ولكنه عندئذ قد يتم عما أحب أن أخفيه ...

— بل إن ذلك كان سيحميه دائماً منك ، فيلزمك أن تبعدى عنه ما تحبين اليوم أن تخفيه أحياناً ... كفى عن هذه الخفايا تسقطنى عن الأحمر والأبيض ... ازهدى فى الرموز تصيلى فى الحق وفى الفن إلى الأصدق والأجمل ... أقلى عن التكتم تصلى فى الحياة إلى أبعد ما ترومين بأسرع مما تظنين ...

— وماذا أيضاً ...؟

— خذى صورة التفاحة هذه ، فأنا أرفضها شاكراً ... وأطلب صورة التفاحة الأخرى ...

— التفاحة لا تستطيع أن تمزج الألوان ولا أن تقبض على الريشة ...

— ذلك خير وأحب ... فعلى التفاحة أن تبقى تفاحة ... ولتطمئن كل الاطمئنان فإبليس حاميها وآدم لا يزال يسيل عليها لعابه

عزيز أحمد فهمى